

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الاستشراق الاسطوغرافي الفرنسي حول ثيمة الجزائر

ما بين الموضوعية العلمية والذاتية المؤدلجة

مقاربة اثنولوجية تاريخية

**French Orientalism on the theme of Algeria
Between the scientific objectivity and the self-meditative
Historical Ethnological Approach**

الدكتورة نعيمة رحمانى Doc Naima Rahmani

الأستاذ الدكتور مقنونييف شعيب Prof. Doc Chaib Megnounif

جامعة تلمسان université de tlemcen

naima.rebat@hotmail.fr

meg_chaib@yahoo.fr

تاريخ القبول : 2019-02-10

تاريخ الاستلام : 2019-01-31

الملخص:

صاغت ظاهرة الاستشراق لبنة ومرجعية تاريخية خطابية هيأت لبروز اسطوغرافيا أجنبية مهتمة بثيمة الجزائر، وتم تداول تلك الاسطوغرافيا بشكل واسع كحقيقة ثابتة نهل منها المؤرخ الغربي والعربي على السواء، الأمر الذي أثر في المخرجات العلمية لهؤلاء المؤرخين وساهم في تشويه وتزييف العديد من الاحداث. من هنا تنطلق مساءلتنا النقدية لتفحص منطق الاستشراق الاسطوغرافي الفرنسي حول ثيمة الجزائر، وكيفية مساهمته في أدلجة الحقائق التاريخية وتزييفها وتطويعها لخدمة النسق الاستعماري والنسق الديني؟ كما نسعى لمعرفة كيف تعاطت الاسطوغرافيا الاستشراقية الفرنسية مع أهم الاحداث التاريخية؟ وهل حققت أهدافها التي إبتغتها؟

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الاسطوغرافيا، الجزائر

Abstract:

The phenomenon of Orientalism was characterized by a historical reference structure creating a foreign historiography interested in Algeria. It was widely circulated as a fixed fact, including by Western and Arab historians, which influenced scientific production and distorted and falsified many events.

From there begins our problematic, which seeks to examine the logic of French historiography on the theme of Algeria, and how to contribute to the pretexts of historical facts and the falsification and adaptation to the service of the colonial and religious format? We also seek to know how French orientalist historiography dealt with the most important historical events? Has it achieved its objectives?

Keywords: orientalism, historiography, Algeria

مقدمة

عام 1612م بطبع كتاب "تخطيط وتاريخ عام للجزائر" للراهب الاسباني فراي ديبوقودي هايدو Fray Diego de haiedo ، والذي ترجم الى الفرنسية عام 1870م.⁽¹⁾ ومن جانب آخر برزت الاسطوغرافيا الإنجليزية ممثلة في المصدر التاريخي "رحلة في ولاية الجزائر" و"رحلات في شمال افريقيا وفي المشرق" عام 1738م، للرحالة

لقد استقطب تاريخ الجزائر في العهد العثماني اهتمام غالبية الدول الأجنبية، حيث ظهرت الاسطوغرافيا الاسبانية الموالية للنسق الديني المسيحي، والتي تشكلت عبر اهتمام الكنيسة بها ماديا ومعنويا بغية تشويه الأحداث التاريخية لصالحها؛ حيث تكفلت الكنسية

Robert Ageron (1923-2008م) صاحب مؤلف "تاريخ الجزائر المعاصرة"، والذي عرض الكثير من الاحداث التاريخية في محاولة منه لإزالة النظرة القاتمة الفرنسية للجزائر.⁽⁴⁾ وحيال هذه القلة من المؤرخين الذين حاولوا عرض الاحداث بموضوعية ودحض تزييفها نجد ان السواد الاعظم منهم أعرض عن غاياته العلمية بشكل أثار سلبا على إسطوغرافيا الجزائر فبات الزيف حقيقة تعكس رواسب استشراقية توارثتها الأجيال الى يومنا هذا.

نحاول ان نرصد الآن الرواسب ذات العلاقة الوطيدة بثيمة الجزائر. ونستهلها بالاستشراق الفرنسي في الجزائر، الذي بزغ تماشيا مع اهتمامه باللغة العربية في الجزائر، وقد تزامن ذلك مع تاريخ الاحتلال أي عام 1830م. ولا ضير من ان نذكر ان اهتمام المستشرقين الفرنسيين باللغة العربية بشكل عام بدأ اثناء حملتهم على مصر عام 1798م، كما وقد صاحب الاحتلال الفرنسي ضدّ الجزائر ثلّة من المترجمين منهم من تخرج من مدارس اللغات الشرقية الأوروبية، ومنهم من قدم من الشام ومصر بعد الاتصال بالحضارة الأوروبية عقب حملة نابليون.⁽⁵⁾ وخير مثال يجسّد بداية الاستشراق الفرنسي في الجزائر هو ترجمة النص الموجه للشعب الجزائري من قبل الاسقف جون شارل زكار Jean-Charles Zaccar (1793-1843م) بمساهمة المستشرق أنطوان ايزيك سيلفستردى ساسي Antoine Issac Silvestre de Sacy (1758م-1838م)، جاء فيه: "بسم الله المبدئ المعيد وبه نستعين.... اعلموا وتأكدوا يقينا أنني لست آتيا من أجل محاربتكم، فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة السرّ. ثم إني احقق لكم أنه ليس فينا من يريد يضركم لا في مالكم ولا في اعيالكم ومما ضمن لكم ان

الإنجليزي توماس شو Thomas Shaw (1694-1751م)، حيث ترجمت تلك المصادر الى اللغة الألمانية الأمر الذي مهّد إلى ظهور الاسطوغرافيا الألمانية حول الجزائر مع الرحالة الالمان أمثال ولهايم شيمبر Wilhelm Schimper (1804-1878م) وموريتز واغرن Moritz Wagner (1813-1887م). وظهرت أيضا الاسطوغرافيا الإيطالية مع المصدر التاريخي حول الجزائر "رحلة الى سواحل البرابرة" عام 1824م للشاعر الإيطالي فليبو بناتي.⁽²⁾

هي إذن نماذج فقط من فيض معلوماتي اسطوغرافي مكثّف أدّر زخما معرفيا أجنبيا حول ثيمة الجزائر ابان العهد العثماني، لكننا في هذا المقام سنركز بعمق أكثر وبشكل خاص على الاسطوغرافيا الفرنسية لما لها من تأثير قوي على الاسطوغرافيا المحليّة.

1) بواكير الاسطوغرافيا الفرنسية المهتمة بثيمة الجزائر

من الاجحاف ان نجمل كلّ الاسطوغرافيا الفرنسية في قالب واحد يخدم النسق الديني التنصيري والنسق الاستعماري، بل توجد تأليفات تاريخية تجاوزت ذلك البعد الضيق، وأسهمت في ابراز سلبياته، وخير دليل على هذا الجمعية العالمية للسانسيمونية Saint-Simonniens التي وقفت عام 1861م في وجه الاستعمار الفرنسي منادية بشعار "الجزائر للجزائريين"⁽³⁾، والى جانبها نورد مؤلّف الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر Jean-Paul Sartre (1905-1980م) "عارنا في الجزائر"، الذي سجل فيه ببسالة متناهية مساوية السياسة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا، ومدى تأثيرها على قيم الحرية والشعارات التي كانت تنادي بها. دون ان ننسى أيضا المؤرخ الفرنسي شارل روبير اجيرون Charles

محمد بوطالب نجيب على لسان السوسولوجي الفرنسي ريني موني René Maunier (1887-1951م) الذي قال: "أن لنا مصلحة نظرية ومصلحة تطبيقية لتتعرف على حياة الشعوب الجزائرية... لأنه من حقنا ومن واجبنا نحن الفرنسيين ان نعرف ونفهم جميع الشعوب التي نحملها وندير شؤونها ولا نتوقف ابدا عن القيام بالواجب نحوها...ولما في تنظيم الدراسات من غايات مادية وتطبيقية باعتبار ان العلم مصدر للنفوذ والحكم.⁽¹¹⁾ يعتبر هذا القول تأكيدا صريحا من لدن مختص فرنسي على علاقة النسق العلمي بالنسق الاستعماري مصدر النفوذ والحكم والسلطة. باعتبارهما قوتان اتحدتا معا بغية تنفيذ عملية الاستيطان على الأراضي الجزائرية والتي دامت 132 عاما. ويؤكد ذلك المؤرخ الفرنسي جيلبر مايني Gilbert Meynier (1942-2017م) قائلا: "على عكس بايلك الجزائر العثمانية، فان الفرنسيين والأوروبيين حاولوا التجذر في الجزائر؛ انه استيطان شعبي، حيث وصل عدد المستوطنين في نهاية القرن 19م ربع الشعب الجزائري."⁽¹²⁾ وهنا نقطة مهمة تستوقفنا مفادها اعتراف صريح بان السياسة الفرنسية في الجزائر تختلف تماما عن سياسة الدولة العثمانية أو بلغة جيلبر "بايلك الجزائر العثمانية"، فهي عملية استيطان مدروسة وتجذر للجنس الفرنسي.

وإذا توجهنا صوب الاسطوغرافيا الفرنسية حول الجزائر سنجد ان الفترة الممتدة ما بين 1830 و1880م قد شهدت عناية فئة العسكريين بتدوين تاريخ الجزائر، وكانت مستندة في ذلك على المصادر الاهلية المكتوبة؛ كعقود الملكية، المذكرات الاحداث الشفوية؛ القصص وغيرها. بينما شهدت الفترة الممتدة ما بين 1880 و1954م اطلالة عهد المؤرخين المتخصصين وكان ذلك تزامنا مع إقامة المدارس العليا (جامعة الجزائر) تنفيذا

بلادكم وارضيتكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ما هو لكم صغيرا كان او كبيرا يبقى على ما هو عليه...ثم اننا نضمن لكم ايضا ونعدكم وعدا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي عليه الان وأكثر، وانه لا يتعرض لكم أحد في امور دينكم وعبادتكم."⁽⁶⁾ وهو بيان هيمن عليه أسلوب التعبير المعتمد في شمال افريقية عام 1830م، حيث ورد محتوى الخطاب وهو حامل لثقل معرفي غزير عاكس بدقّة لثقافة المجتمع الجزائري، بغية استغلاله كنوع من الاستراتيجية الخطابية المقنعة. وهنا تتأكد علاقة الاستشراق بالإدارة الفرنسية او علاقة النسق العلمي بالنسق الاستعماري حيث سرد المؤرخ الجزائري أبي القاسم سعد الله (1927-2013م): "من الواضح ان الاستشراق كان مرتبطا منذ البداية بإدارة الاحتلال."⁽⁷⁾ ويضيف: "ان المستشرقين في الجزائر كانوا مرتبطين بالإدارة الفرنسية ارتباطا سياسيا، وكانوا مدعومين من قبل لجنة افريقيا الفرنسية...ومن الجامعات الفرنسية، ومن اللوبي الاستعماري عموما."⁽⁸⁾ وبذلك تكون فرنسا قد انتهجت في احتلالها للجزائر سياسة الغزو العسكري، وتوافقا معه مارست سياسة الغزو الفكري، حيث سخّرت أقلام المستشرقين الضالعين في أمور الإسلام وتاريخه، وسخرت ايضا المترجمين والصحفيين والمطبعة لخدمة أهدافها.⁽⁹⁾ وبالتالي شهد النسق العلمي والنسق الاستعماري حالة خدمات تبادلية غايتها مساندة وتوطيد النزعة الغربية الاستعمارية المهيمنة، يؤكد ذلك الباحث ادوارد سعيد في قوله: "ان التشكيل الذي يضم الفقه واللغة، وكتب الرحلات، والقصص الخيالية الشرقية على مر الزمن في كلام الناس وتفكيرهم وفي المؤسسات، والمدارس والمكتبات والوزارات يهبه القوة والسلطة."⁽¹⁰⁾ كما يذكر الباحث



صورة مسجد كتشاوة العثماني بعدما تحول الى كاتدرائية⁽¹⁸⁾



مسجد كتشاوة العثماني بعد ترميمه وتدشينه عام 2018م⁽¹⁹⁾

وعن قضية تعميم الجهل في الجزائر شهد المؤرخ والمنظر السياسي الفرنسي اليكسيس دو توكفي Alexis De Tocquville (1805-1859م) بعد احتلال الجزائر بـ 18 عاما أي عام 1848م على هذه الواقعة قائلا: "لقد اطفأنا الشموع (المدارس) التي جئنا لنضيئها"⁽²⁰⁾ وفي مقابل إطفاء الشموع واضفاء الجهل على عموم أهالي الجزائر تم انشاء مدارس للفرنسيين وقلة من الجزائريين، حيث ذكر المؤرخ ابي القاسم سعد الله أنه كلما احتلت واستوطنت مدن جزائرية إلا وأنشأت فيها فرنسا مدارس ابتدائية موجهة في الغالب للفرنسيين، فتأسست في وهران أربع مدارس ابتدائية عام 1338م،

لقانون 1880م⁽¹³⁾ وفي مفارقة لا علمية عملت فرنسا جاهدة على تحويل المؤسسات التعليمية كالمساجد والكتاتيب عن اغراضها العلمية بغية تعميم الجهل وسط أهالي البلاد وطمس هويتهم، فدنتت المساجد وحولتها إلى كنائس ومكاتب إدارية واسطبلات وثكنات عسكرية، وبالمقابل أسست مدارس فرنسية للمستوطنين الجدد. وفي هذا السياق يذكر المؤرخ الفرنسي جيلبر مايني Gilbert Meynier (1942-2017م) أنه تم الحفاظ على قصبة الجزائر العاصمة نسبيا، بينما تحول مسجد كتشاوة إلى كاتدرائية، وتحول مسجد سيديغانم بمدينة ميله إلى مستقر للصيادين، اما تلمسان فقد شهدت اختفاء ثلثا المدينة الداخلية، ناهيك عن الأضرار التي لحقت بالمباني الأثرية مثل مسجد وقبة سيدي إبراهيم، كم دمر تقريبا مسجد سيدي لحسن، وتحول مسجد سيدي لحوي إلى متحف.⁽¹⁴⁾ وبالتركيز على مسجد كتشاوة⁽¹⁵⁾ التحفة المعمارية العثمانية التي شيدت عام 1612م، نجد ان الاحتلال الفرنسي قد حولها الى كاتدرائية يوم 24 ديسمبر 1832م، أي ليلة الاحتفال بعيد الميلاد المسيحي كرمزية للنسق الديني المسيحي، وسميت "كاتدرائية سان فيليب" Cathedral Saint Philippe⁽¹⁶⁾ بعد ان استشهد فيها حوالي 4000 مصلا كانوا معتصمين بداخلها منعا لدخول الجنود المستعمرين، وقد أطلق عليها لحظتها اسم مسجد الأربعة آلاف شهيد.⁽¹⁷⁾ ثم رمت منذ عام 2013م من قبل الوكالة التركية للتعاون والتنسيق (تيكا)، ودشنت في شهر فبراير عام 2018م من قبل الرئيس التركي طيب أردوغان وحرمه.

التضحية برسالة المؤرخ وبقيم البحث واخلاقياته. وبغية تبرير الاستعمار والتأريخ له والعمل على انجاحه واستمراره بكل الوسائل قام المؤرخون الفرنسيون ببث روح الريبة والتشكيك في القيمة العلمية للمصادر الاهلية، فأدانوها بالمبالغة في عرض الاحداث ونادوا بإقصائها وعدم الاعتماد عليها. وفي مقابل ذلك صمّموا على الاتكال على المصادر الأوروبية ووثائق الأرشيف الرسمية والتجارية، ورحلات الأوروبيين وارشيف الدول الأوروبية.⁽²⁶⁾ الأمر الذي أدى الى اهمال ما جادت به قريحة العلماء العرب والجزائريين من رسائل ومخطوطات علمية. بالإضافة الى تعمّد اهمال الأرشيف العثماني واتلاف جزء كبير منه لما يحمله من احداث تاريخية مغايرة تماما لا تخدم النسق الاستعماري الفرنسي ولا النسق العلمي المبني على اسطوغرافيا مُبَيّنة أزحت للجزائر من منطلق الغالب القوي ذو الأفق الاستعماري الضيق الذي ارتكز على أخبار الجواسيس واعمال العسكريين غير المتخصصين وعلى تقارير القناصل المقيمين بالجزائر، ومذكرات الرهبان التي أنتجت اسطوغرافيا فرنسية مثقلة بمضامين بعيدة في اغلها عن حقائق الأحداث التاريخية، ومتأثرة بخلفية استعمارية غايتها تبرير الحركة الاستعمارية.

اتّسمت جلّ الاسطوغرافيا الاستشراقية الفرنسية بمغالطات عديدة فرضت على الساحة التاريخية، حيث تمّ عرض تاريخ بلدان المغرب العربي عامة والجزائر خاصة على انها مسرح للحوادث الدامية اللامتّهية، وفي المقابل عرضت البلدان الأوروبية على انها مثال للرق والحضارة، والبعيدة كل البعد عن همجية الدول "البربريك" كما كانوا ينعنونها، والتي تعتمد في عيشها على القرصنة وقطع الطرق.⁽²⁷⁾ وقد استغلت هذه المغالطة التاريخية لبثّ النزعة التفوقية

وفي عنابة خمس مدارس من المستوى نفسه. وكانت موجبة في الأصل الى الاوروربيين، ولكنهم سمحوا للأقلية الجزائرية بارتياحها في حال رغب اولياؤهم بذلك) ثم يضيف فيإشارة الى هيمنة وتدخل النسق الديني المسيحي في عملية التعليم في الجزائر، "ان بعض التعليم الابتدائي قد اصبح في ايدي الأسقفية الكاثوليكية التي تأسست عام 1838م، وهم ما نسميه بالمدارس الدينية او الكنيسة."⁽²²⁾ أما الباحث بو عبد الله محمد فيذهب الى رأي مخالف نوعا ما لما ذكره المؤرخ أبي القاسم سعد الله كاشفا ان تلك الفترة الاستعمارية قد شهدت عنصرية تعليمية مقننة عرفت ذروتها في خلال تخصيص مدرستين مختلفتين: المدرسة الفرنسية والمدرسة الاهلية، وكل منهما تختصّ بمنح شهادة مختلفة عن الأخرى، أي شهادة فرنسية وشهادة أهلية.⁽²³⁾

هذا عن ارتباط النسق التعليمي العلمي بالنسق الاستعماري في باكورة الاستشراق الفرنسي بالجزائر. أما بخصوص علاقة الاسطوغرافيا الفرنسية بالنسق الاستعماري، فخير مثال نوردته تمّ في الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر عام 1930م، أين انعقد في الجزائر المؤتمر الوطني الفرنسي الثاني للعلوم التاريخية، حمل شعار: "تبرير الاستعمار والتأريخ له والعمل على انجاحه واستمراره بكل الوسائل"،⁽²⁴⁾ هو في الحقيقة لا يعكس شعارا بقدر ما يعكس قاعدة بنى عليها ما يسميه السوسولوجي الكندي جي روشيه Guy Rocher (1924م) "نسق التبرير" الذي استغله المستعمر أيّما استغلال ليبرر ويزكيّ احتلاله باعتباره في مهمة إنقاذ حضارية⁽²⁵⁾ تقتضي انتشارال البلدان المستعمرة من الحضيز الثقافي، وهذا ما يعبر بصدق عن أهداف فرنسا وعن مساهمة النسق الاستعماري السياسي في

وطرف ضعيف تابع له هو الجزائر.⁽³¹⁾ حيث نُعتت المجتمعات المستعمرة كالجزائر

بالمجتمعات القدرية الجبرية.⁽³²⁾ العاجزة عن التأثير في مجرى الأحداث. وما هذه الأفكار والنظريات سوى اعتقادات بعض المستشرقين الذين يسعون بكل الوسائل لإفصال تلك المجتمعات واحباطها وجعلها خاضعة لتلك القدرية التي نظروا لها. فالسمة القدرية لا تمثل قيمة مطلقة بل تبقى نسبية عند جميع المجتمعات، ودليل ذلك انبجاس الحركات التحررية الناشدة للحرية في حركة ثورية. ومن جانب آخر قد اغفلت النظرية القدرية الجبرية درجة التنوع والإبداع وعدم الاتفاق التي تتسم بها كل المجتمعات الإنسانية، وهذا الإغفال يدحض تلك النظرية المبنية على حتمية الجمود والثبات، كما تدحضها أيضا نظرية النسبية الثقافية التي تعتبر أن لكل ثقافة أو مجتمع منطقها الخاص وتماسكه الداخلي اللذان يمكن في ضوءهما تفسير عاداته وتقاليده.

ومن جانب آخر تأثرت الاسطوغرافيا الفرنسية حول ثيمة الجزائر بالعاطفة الانتقامية الاستعمارية، حيث ناصرت في تأليفاتها النسق الاستعماري الفرنسي، كردة فعل انتقامية للحملات الفاشلة التي قام بها لويس 14 وشارلكان والانجليز ضد الجزائر.⁽³³⁾ ويؤكد هذا الحدث الباحث عبد الرحمن دويب حيث ذكر أن المؤلف كاط cut وهو أستاذ بمدرسة الآداب العليا بالجزائر قد عبّر في مؤلفه "التاريخ الصغير للجزائر والمغرب وتونس" عام 1891م عن تأييده للأفكار الاستعمارية قائلا: "في الخامس يوليو أمكن للجيش الفرنسي ان يخرق بأقدامه شوارع الجزائر الضيقة مسلحا، تلك الشوارع التي امتنعت على الملك شارلكان ولويس الرابع عشر، ولم

لفرنسا على حساب الجزائر، تلك النزعة التي تفسر التباين القائم بينهما على أساس التقدم والتحضّر، والتي تسمح باحتلال الجزائر، الأمر الذي يتوافق مع التطلعات الاستعمارية. وما زاد الوضع تأجيجا هو التنظير الجمعي السلبي لتبرير الاستعمار، حيث كان المنظرون الفرنسيون يرسلون استمارات تحوي أسئلة عن المعلومات التي يودون الحصول عليها من البلدان المستعمرة تأكيدا لنظرياتهم⁽²⁸⁾ وتوسيعا للهوة بين الجزائري والفرنسي. فتمّ الترويج المطلق للتحيز العنصري، والتّمرکز حول السلالة والتعصب العنصري، وهي تنظيرات ظلت ملازمة للفعل الاستعماري، وأضفت عليه شرعية ممارسة الابداء للإبقاء على النوع الأصلح. وكنتيجة لتعميم وتوظيف تلك النظريات ظهرت اسطوغرافيا استشراقية فرنسية ألحّت معظمها على ان البلدان المغاربية عامة والجزائر خاصة قد طبعت في العهد الروماني بالطابع المسيحي، وان الفتوحات الإسلامية جريمة لا تغتفر، فجاء شعار انصار الكنيسة من المؤلفين؛ "افريقيا اللاتينية" و"الجزائر الفرنسية".⁽²⁹⁾ وعلى اثر ذلك اعتبر الفرنسيون جنسهم وعرقهم افضل وأجود وارقى من جنس الجزائريين، فراحوا يصفون الجزائري بأبشع الصفات؛ حيث صوّروه الانسان المتوحش، او الحيوان دون البشري، ونعتوه بالكائن المتخلف العاجز عن التعلم والتطور بحكم الدونية الحتمية والقصور البيولوجي المكوّن له، فكان في نظرهم بحاجة لمن يقوده ويطوره ويخرجه من حالة القصور والتخلف⁽³⁰⁾ الى حالة التمدن والتحضّر على أساس ان شعب فرنسا هو شعب مسيحي متحضّر يحكم شعبا مسلما متخلفا. هذه المعطيات (المغلوطة) هي التي قررت نوعا من الحتمية التاريخية عندهم، تلك الحتمية التي تفرض وجود طرف قوي ممثل في فرنسا

حتّ الشعوب المسلمة على الخروج من هذا المرض "القابلية للاستعمار" في خلال وعي منهجي ونهضة حضارية. وهو بتنظيره هذا قد نال نقمة المستعمر الفرنسي عليه، بيد أنه حاول ان يفتح عيون الشعوب المسلمة حول حقيقة أن "القابلية للاستعمار" ضربة للاستعمار أكثر منها تشخيص لواقع المستعمر، حيث يقول المفكر بن نبي: "الاستعماريون فهموني...فأنا في اعينهم لا أسبّ الاستعمار بل أقتله وهو داخل البيضة، أخنقه من جذوره التي تمتدّ في مساحة القابلية للاستعمار".⁽³⁷⁾ ويضيف: "الاستعمار كثير الحذر من الأفكار، ويعرف مدى قوة الفكرة".⁽³⁸⁾ ففي نظره بدأت القابلية للاستعمار في معركة صفيين⁽³⁹⁾ وزاد المرض انتشارا مع سقوط دولة الموحدين⁽⁴⁰⁾، تلك الأحداث المساوية قد أدت الى انتفاء انسان الحضارة، ومهدت لعودة النعرات الحزبية، حيث طغى أفكر الاناني وفكر الزعامات، وبرز من جديد الفكر القبلي. فاتسم انسان ما بعد الموحدين بالتراجع الحضاري والتخلف حيث يقول المفكر مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة": "الكارثة التي اصابته العالم الإسلامي في واقعة صفيين فأخرجته من جوّ المدينة الذي كان مشحونا بهدى الروح، وبواعث التقدم الى جو دمشق حيث تجمعت مظاهر الترف وفتور الايمان".⁽⁴¹⁾ وحول الفكرة نفسها يضيف في كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة": "ان التخلف الذي حصل سببه روح الفردية وحلول نظرية الجزء، فقامت الدويلات واستعر القتال، وحصل الانحطاط والسقوط".⁽⁴²⁾ يؤكّد هنا المفكر مالك بن نبي على الميل المرضي الى الذرية والفردية والانانية التي صبغت الروح الإسلامية، على أساس انه قبل ذلك؛ أي في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية قد تميّز الفكر العربي بخروجه من العقل الذري الفردي الى العقل الكوني

تطأ اقدام اجدادنا طرفاتها الأ مكبّلة بالحديد، أسرى او عبيد، فهذا مبدأ أعظم احتلال يسجله التاريخ لفرنسا".⁽³⁴⁾ يستعيد هنا المؤرخون الفرنسيون الخيبات الاستعمارية التي حدثت في القرن م16 بذكرى الملك شارل كان ولويس الرابع عشر اللذان استعصت عليهما الجزائر ضمن تأليفات اسطوغرافية مليئة بالحقد التاريخي وبعيدة كل البعد عن الموضوعية العلمية. وليس بعيد عن الحركات الاستعمارية التي تقابلها بالطبع حركات ثورية مضادة، تأتي الاسطوغرافيا الفرنسية لتدعي ان الجزائريين عنصرين ومتعصبون دينيا وعرقيا وليست لديهم القدرة على التعايش مع الأجانب والأوروبيين المسيحيين، الامر الذي جعلهم يثورون ضدهم. رغم ان الجالية الأوروبية قد تواجدت في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وخاصة اثناء تأسيس مراكز صيد المرجان الفرنسية بمدينة القالة وعنابة منتصف القرن السادس عشر.⁽³⁵⁾ ثم ادعت أيضا ان الجزائريين لا يثورون الا في حالة اشتد بهم الفقر والجوع والعراء والخصاصة، وفي الحالة المغايرة أي عندما تتحسن أوضاعهم فانهم يهدؤون ويقبلون ويرضون بحكم الأجانب لهم واحتلال بلادهم.⁽³⁶⁾ ففي الحالة الأولى ترى الاسطوغرافيا الفرنسية ان رجال الدين وراء الثورات وفي الحالة الثانية ترى ان الخصاصة كالفقر والجوع هي السبب خلف الثورات عليهم، فأى حجة هي الأصح الأولى ام الثانية؟ لقد أحالتنا الفكرة الأخيرة "يرضون بحكم الأجانب لهم واحتلال بلادهم" إلى الفكر البنّابي نسبة الى المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905-1973م)، والذي نظّر لفكرة "القابلية للاستعمار"، وهو في هذا المقام لم يقصد ان يُنقص من قيمة الشخصية الجزائرية او العربية المسلمة على اعتبار ان " القابلية للاستعمار" لا تخص الجزائريين فقط، بل غايته كانت

رأسه ومعصم يده اليسرى ووصلت إلى المعسكر وقد نصبت الرأس في أعلى حربة وعلقت معصمه في مدك البندقية، فبعثنا بهذه الغنيمة إلى الجنرال باراكي الذي كان معسكر بقربنا، فابتهج مما رآه".⁽⁴⁸⁾ ثم أرسل رسالة إلى رئيس فرنسا عام 1842م يقول فيها عن الجزائريين: "كنا نلاحق العرب حيثما وجدناهم، ونستولي على كل ما بأيمانهم من النساء والأطفال والقطعان والأشياء الثمينة...وفيما يتعلق بالنساء فإننا نأخذ بعضهم سبياً، ونقايض الباقي بالخيال أو نبيعهم في المزاد العلني مثل الحيوانات...لقد جعلنا من التخريب والابادة لازمة فالنساء والأطفال يجبرون على الاستسلام، فيستقبلون بالقتل والذبح ويختلط الصراخ والأنين بأصوات الحيوانات التي تتعالى من كل الجهات...انه جهنم لكن بدل النار التي تشوي تغمرنا الثلوج...كل ذلك كنا نشهده من دون شفقة ولا رحمة".⁽⁴⁹⁾ وفي السياق نفسه يذكر الباحث بوعبد الله محمد أن كبير السفاحين ارمان جاك-لروا سانت أرنو Armand-Jacques Leroy Saint-Jacques (1801-1854) قال: "لما كنت اشعر بالملل وتراودني الأفكار السلبية أمر بقطع الرؤوس حتى ارتاح وأتسلى".⁽⁵⁰⁾ ونتيجة للهمجية والوحشية التي مارسها الاستعمار الفرنسي صاحب شعار "الحرية، المساواة، الأخوة" أقر الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر-Jean Paul Sartre (1905-1980م) بالنفسية المريضة للشخصية الاستعمارية عندما اطلع على كتاب "مجننون يشهدون" الذي احتوى على شهادات المجندين ورجال الدين الفرنسيين حول التجاوزات والابادة الوحشية الممارسة في حق الشعب الجزائري فقال: "اوصي بقراءة هذا الكتيب، واوصي جميع الذين لم يعرفوه بعد، وأتمنى ان يقرأه جميع الفرنسيين، ذلك لأننا مريضون، مريضون جدا".⁽⁵¹⁾ أنه اعترف شخصي

الجماعي.وكاستراتيجية طرحها المفكر مالك بن نبي للتخلص من الاستعمار في كتابه "شروط النهضة" يقول: "لكي لا نكون مستعمرين يجب ان نتخلص من القابلية للاستعمار".⁽⁴³⁾ نظرية بنيت على أساس الآية الكريمة: "ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".⁽⁴⁴⁾ وهي تستوجب عملية تكفل بالإنسان الأمي والتراب البائر والوقت الضائع لأن مقومات الحضارة في نظره هي الانسان والتراب والوقت، ويقوم الدين بالتركيب الحضاري في تفاعل كيميائي وليست مجموعة من التراث المتوارث فقط، او تكديس للمنتجات.⁽⁴⁵⁾ كما وأكد المفكر انه ورغم الاستقلال الذي ستحظى به أي دولة كانت مستعمرة، فانه يمكن للاستعمار ان يرتد ويعود ثانية بأشكال مختلفة، فذكر في كتابه مشكلات الحضارة بين الرشاد والتهيه ان الاستقلال لا يعني شيئاً في عالم يشهد التقدم المستمر مادامت الأرض التي كانت مستعمرة صالحة لإعادة الكرة، وهو بذلك يدعو الى: "تصفية الاستعمار من العقول قبل كل شيء".⁽⁴⁶⁾ ولن يتأت ذلك الا في خلال: "تقويم جديد في ضمير كل مواطن، وخاصة كل زعيم، لمفهوم الواجب المطهر. الذي من شأنه ان يطهر الجو السياسي في الأوطان التي تعيش مرحلة تصفية الاستعمار".⁽⁴⁷⁾

وبما ان الشخصية الجزائرية غير الثورية في نظرهم قد نالت قسطاً وفيراً في الاسطوغرافيا الفرنسية، يمكننا في المقابل ان نعرض شخصية المستعمر الفرنسي الهمجي ولكن في خلال أدبياته هو وليس في خلال أدبياتنا نحن حتى نكون موضوعيين، حيث عرض الباحث بوعبد الله محمد ما جاء في مذكرات الجنرال لسفاح فرانسوا جوزيف دو مونتانيك François Joseph Lucien de Montagnac (1803-1854م) وهو يصف ساديته وشعوره باللذة وهو يعدّب الجزائري قائلًا: "قطعت له

من قبل الفيلسوف الفرنسي المعروف عن مرض الشخصية الفرنسية وساديتها في خلال ارتكابها الجرائم الشنعاء، إضافة الى التنكيل بجثث الجزائريين بكل برودة.

قائمة المراجع:

- المصحف الشريف برواية ورش
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007م
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1998م
- أمة الرحمن، رسالة الجنرال مونتانيك من مدينة معسكر 1842/02/02 عن موقع وزارة المجاهدين، استخرج من الرابط <http://www.forsanhaq.com/showthread.php?t=234668> بتاريخ 2018/11/27 على الساعة 10.10
- حفناوي بعلي، صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع
- حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، 2008
- عبد الحميد بن ابي زيان بن اشهو، دخول الاتراك العثمانيين الى الجزائر، طباعة الجيش الشعبية، دت، 1972
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م
- عبد الرحمن دويب، تاريخ المدن، الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، وزارة المجاهدين، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2012
- عبد السلام بارودي، كتب ألفها أجنب عن الجزائر، مقال استخرج من الرابط-ww.maghrebvoices.com/a/Algeria/history-books/389184.html، بتاريخ 2018/12/10م، على الساعة 20.19
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986م،
- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1981م،

ختاما يمكننا القول ان جلّ الاسطوغرافيا الفرنسية بمنهجها الذي انتهجته قد أخضعت من قبل النسق الاستعماري والنسق الديني الى متطلباتهما، فأنتجت مؤلفات تاريخية عن الجزائر فاقدة للقيمة العلمية والموضوعية وحاملة للايديولوجيا السلبية المغرضة في بعدها الضيق، حيث عمل رجال الكنيسة على تأريخ ما يخدم قضيتهم، وسطّر كل من هبّ ودبّ تاريخ الامة من رهبان لا علاقة لجلهم بالتاريخ، وضباط وعساكر خدام النسق السياسي اكثر من النسق العلمي، واسرى متحاملين علي من اسرهم، وفي حاجة الى اعادة ادماجهم في مجتمعاتهم والسبيل الى ذلك هو كسب الشهرة وفي الوقت نفسه التشهير بمن اسرهم. كما عُنت الاسطوغرافيا الفرنسية بتطبيق النظريات الغربية بغية التنقيص من قيمة الآخر وتشويهه واعتباره دون المستوى الحضاري، مع تأجيج الحقد ضدّ المسلمين واعتبارهم قراصنة وسفاحين، والترغيب في عملية التنصير خدمة للدين المسيحي، وما هذا الا استراتيجية تمهيدية تشرّع لهم الحق في استعمار البلاد والعباد. لهذا وردت معظم الاسطوغرافيا الغربية عامة والفرنسية مغلقة بالبعد العاطفي الذي سعى جاهدا الى خدمة أغراض النسق الاستعماري والديني معا، دونما احترام للموضوعية العلمية التي ينشدها المؤرخ الحقيقي.

- 4-عبد السلام بارودي، كتب ألفها أجنب عن الجزائر، مقال
استخرج من الرابط-ww.maghebvoices.com/a/Algeria-
history-books/389184.html، بتاريخ 2018/12/10م، على
الساعة 20.19
- 5-أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار
البصائر، الجزائر، 2007م، ص18
- 6-وثيقة تاريخية، اول بيان وجهته فرنسا للشعب الجزائري بعد
الانزال العسكري في الجزائر عام 1830م، هذا البيان موجود في
الصفحة الاخيرة من كاتلوج مكتبة أم.دي ساصي، المجلد3، عدد
5757. استخرج من الرابط <http://www.algeriachannel.net>
بتاريخ 2018/02/17 على الساعة 18:04
- 7- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب
الإسلامي بيروت، ط1، 1998م، ص13
- 8-المرجع نفسه، ص14
- 9-ابو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1،
مرجع سابق، ص18
- 10- المرجع نفسه، ص68-69
- 11-محمد نجيب بوطالب، صورة العربي الآخر ناظر ومنظور اليه،
مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1990م، ص438
- 12-Gilbert Meynier, L 'Algérie et les Algériens sous le
système colonial. Approche historico historiographique,
Insaniyat n0 65-66, juillet –décembre 2014, p15
- 13-حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار
الهدى، الجزائر، 2008، ص103
- 14-Gilbert Meynier, opct, p15
- 15-سعي كتشاوة نسبة الى سوق المعز الذي كان يقام في الساحة
المجاورة ولا يعرف مؤسسه فعليا.
- 16-محمد حاج سعيد، مساجد القصبة في العهد العثماني،
تاريخها دورها وعمارتها، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية،
جامعة الجزائر، 2015-2014م، ص64-71
- 17-كتشاوة مسجد الأربعة آلاف شهيد، مقال استخرج من
الرابط <http://www.cnerh-nov54.dz/wpcnerh> بتاريخ
2018/11/25 على الساعة 19.16
- 18- محمد حاج سعيد، مرجع سابق، ص74
- 19- صورة استخرجت من الرابط
<https://www.google.com/search?q>
على الساعة 19.25، بتاريخ 2018/11/25.
- 20-أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج4،
مرجع سابق، ص43
- 21-المرجع نفسه، ص293
- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة بين الرشد والتهيه، دار الفكر
المعاصر، بيروت، لبنان، 2002م
- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج2، دار الفكر، دمشق،
ط1، 2012م
- محمد حاج سعيد، مساجد القصبة في العهد العثماني، تاريخها
دورها وعمارتها، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة
الجزائر، 2015-2014م
- محمد نجيب بوطالب، صورة العربي الآخر ناظر ومنظور اليه،
مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1990م
- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وابحث في
تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، 2008م
- يحي بوعزيز، حروب المقاومة بالجزائر كما صورتها الكتابات
الفرنسية، أعمال الملتقى الوطني حول المدرسة الغربية وقضايا
التاريخ الجزائري المنعقد أيام 10-11-12 مارس 1987م، مجلة
الدراسات التاريخية، العدد5، معهد التاريخ، جامعة الجزائر،
1408هـ- 1988م
- Gilbert Meynier, L 'Algérie et les Algériens sous le système
colonial.
Approche historico historiographique, Insaniyat n0 65-66,
juillet –décembre 2014
-Guy Rocher, Le changement sociale, édition HMH,
Paris,1968, p229
- Rouchdi Fekkar, Reflets de la sociologie pré-marxiste dans
le monde arabe, (Idées progressistes et pratiques
industrielles des Saint--Simoniens en Algérie et en Egypte
au xix siècles, édition P.Geuthner, Paris.
- الهوامش:
- 1-عبد الرحمن دويب، تاريخ المدن، الأعمال الكاملة للشيخ المهدي
البوعبدلي، وزارة المجاهدين، الجزائر، عالم المعرفة للنشر
والتوزيع، 2012، ص117-118
- 2-حفناوي بعلي، صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات
الغربيين، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، ص216-228
- 3-Rouchdi Fekkar, Reflets de la sociologie pré-marxiste
dans le monde arabe, (Idées progressistes et pratiques
industrielles des Saint-Simoniens en Algérie et en Egypte
au xix siècles, édition P.Geuthner, Paris,p33-38

- 22-المرجع نفسه، ص293
- 23-بوعبد الله محمد، مرجع سابق، ص08
- 24-ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، 2008م، ص36
- 25-Guy Rocher, Le changement sociale, édition HMH, Paris,1968, p229
- 26- ابو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، مرجع سابق، ص27
- 27- عبد الحميد بن ابي زيان بن اشهو، دخول الاتراك العثمانيين الى الجزائر، طباعة الجيش الشعبية، دت، 1972، ص7
- 28-حسين فهميم، قصة الانثروبولوجيا، مرجع سابق، ص131-132
- المرجع نفسه، ص12329-
- 30- بوعبد الله محمد، مرجع سابق، ص08
- 31-ابو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، مرجع سابق، ص17
- 32-المرجع نفسه، ص427
- 33-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، مرجع سابق، ص384
- 34-عبد الرحمن دويب، مرجع سابق، ص123
- 35-يحيى بوعزيز، حروب المقاومة بالجزائر كما صورتها الكتابات الفرنسية، أعمال الملتقى الوطني حول المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري المنعقد أيام 10-11-12 مارس 1987م، مجلة الدراسات التاريخية، العدد5، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1408هـ-1988م، ص160
- 36-المرجع نفسه، ص161.
- 37-مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج2، دار الفكر، دمشق، ط1، 2012م، ص16
- 38-المرجع نفسه، ص35
- 39-واقعة صفين هي معركة حدثت في قرية صفين على الحدود العراقية السورية ودارت بين جيش علي بن ابي طالب وجيش معاوية بن ابي سفيان عام 37 للهجرة، وسببها الخلاف حول القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه الا ان عليا بن ابي طالب قد طالب بالبيعة أولا ثم القصاص، وانتهت المعركة بطلب الفريقان اللجوء الى تحكيم المصحف الشريف فهو الوحيد الذي يجمع الناس على الحق، ينظر اسلام فتحي، ما هي معركة
- صفين، مقال استخرج من الرابط <https://mawdoo3.com>
- بتاريخ 2018/12/16، على الساعة 19.52.
- 40-دولة الموحدون (1145-1369م) دولة مسلمة، مركزها مدينة مراكش، تأسست على يد رجل السياسة المغربي بن عبد الله الشهير باسم تومرت من قبيلة مسمودة، أنشأها على الدين أمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر وداعيا الى تخليص العقيدة من شوائب الشرك والزيف عن التوحيد. حكمت بلاد المغرب (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا) والاندلس. للمزيد من المعلومات ينظر عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، ص289.
- 41-مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986م، ص47
- 42-مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1981م، ص116
- 43- مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص09-10
- 44- السورة الرعد، الآية 11
- 45-مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص46
- 46- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة بين الرشاد والتهيه، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2002م، ص33
- 47-مالك بن نبي، مشكلات الحضارة بين الرشاد والتهيه، مرجع سابق، ص33.
- 48-بوعبد الله محمد، مرجع سابق، ص08
- 49-أمة الرحمن، رسالة الجنرال مونتانيك من مدينة معسكر 1842/02/02 عن موقع وزارة المجاهدين، استخرج من الرابط <http://www.forsanhaq.com/showthread.php?t=234668>
- بتاريخ 2018/11/27 على الساعة 10.10
- 50-بوعبد الله محمد، مرجع سابق، ص09
- 51-بوعبد الله محمد، المرجع السابق، ص09